العلاقات الثقافية بين منطقة توات وتلمسان خلال القرن 10هـ/16م من خلال نازلة اليهود نموذجاً.

The cultural relations between Tuat and Tlemcen during the 10th of theHegira century and the 16th century through the decline of the Jews model

د. عز الدين جعفري، جامعة تلمسان -الجزائر

ملخص: كان لمنطقة توات علاقات حضارية مع حواضر شمال إفريقيا، وجنوبها، خاصة مع تلمسان خلال الفترة الوسيطة بفعل القرب والتشابه الكبير بين المنطقتين في التشكيلة الاجتماعية والثقافية، وبرزت هذه العلاقة بشكل واضح خلال فترة صراع الإمام المغيلي مع اليهود بالمنطقة، حيث كان لعلماء تلمسان موقف في هذه النازلة، مثل السنوسي وغيره.

الكلمات المفتاحية: تلمسان، النازلة، اليهود، المغيلي، الحاضرة.

Abstract : The cultural relationship between the area of Tuat and Tlemcen through the fall of the Jews.

The region of Toat had big relations cultural with the cities of North and South Africa, especially with Tlemcen during the intermediate period due to the proximity and the similarities between the two regions in the social and cultural composition. This relationship emerged clearly during the period of the Imam Mughili conflict with the Jews in the region, such as the Senusi and others.

Tlemcen, El Nazila(the calamity , Jewish , the Imam Mughili, .

The child in popular expressions in the area of Toat through the puzzles and the tale.

مقدمة:

كانت تلمسان ولأزمنة طويلة مركزا حضاريا وثقافيا جعلها قبلة للعديد من العلماء فاستقروا بها، واشتغلوا في مدارسها التي كان لها دور في بعض النهضة الفكرية في هذه الحاضرة، كالمدرسة التاشفينية وغيرها، إضافة إلى النبوغ الفكري الذي تميزت به المنطقة خاصة ما لها موقع جغرافي هام، جذب إليها السياح، والعباد، والفقهاء، فكان لزاما على المار من المغرب الأدنى إلى المغرب الأقصى المرور عليها، أو العكس، ولهذا كانت نقطة اتصال مهم في تاريخ بلاد المغرب العربي، وكل هذه الامتيازات أهلتها إلى أن تكون حاضرة إسلامية شبيهة بقرطبة وأشبيلية بالأندلس، وبغداد ودمشق والقاهرة بالمشرق الإسلامي.

وعن علاقة توات بمنطقة تلمسان ثقافيا تبدوا جلية وواضحة عند حديثنا عن النوازل الفقهية التي عرفتها المنطقة، فاستفتى علماء توات علماء تلمسان، وتبادلوا معهم الآراء والأحكام، ولم يكن ذلك إلا للصلة الثقافية الحسنة بين المنطقتين، وظهر هذا الأمر بشكل جلي عندما عرفت المنطقة نازلة اليهود في القرن 10هـ/16م، خلال وصول أحد علماء تلمسان للمنطقة ووقوفه في وجه اليهود وهو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.

سنحاول في هذه الدراسة الوقوف الدور الذي قام به علماء تلمسان في هذه النازلة وأرائهم فيها، والإشكالية التي تطرح نفسها في هذه الدراسة هي:

فيما تتجلى القيمة الحضارية لمنطقة توات وتلمسان، وكيف أثرت نازلة اليهود على العلاقة بينهما.؟

1. **التعريف بمنطقة توات:**

منطقة توات هي إحدى مناطق الإقليم التواتي الثلاث(ڤورارة، توات، تيدكلت)، والذي يقع ضمن الحدود السياسية لدولة الجزائر، وأصبح يسمى اليوم ولاية أدرار في التقسيم الإداري الجديد للدولة بعد الاستقلال، ونظرا للمكانة الكبيرة التي كانت تحظى بها المنطقة مقارنة بجيرانها، أطلق إسم الإقليم عليها، وهي تقع ما بين نهايات الهضبة العليا للڤرارة التي تشكل الحافة الشرقية لوادي مسعود، والحافة المقابلة له المسماة العرق الغربي، فتوات العليا تبدأ من أعالي مقاطعة بودة في النقطة التي ينحرف فيها واد مسعود باتجاه الغرب فيأخذ اتجاهه الأول من الشمال إلى الجنوب ليصل إلى رڤان، موقعه بين هضبة تادميت شرقا، وعرق الرمل غربا، ومن الشمال منطقة ڤورارة، ومن الجنوب منطقة تيدكلت.

ولأهمية هذه المنطقة التاريخية ورد ذكرها في كتب المؤرخين والرحالة المتقدمين مثل ابن خلدون وبن بطوطة والعياشي وغيرهم... ومن ذلك:

ابن بطوطة في كتابه تحفة النظار فيقول: "...ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام بين تكدى وتوات... ثم وصلنا إلى بودة وأرضها رمل وسباخ وتمرها كثير لكنه ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة،ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت ... وأقمنا في بودة أياما"(محمد بن عبد الله ابن بطوطة ،2001، ص406).

إشارة ابن بطوطة هذه هي أقدم ذكر صريح لأرض توات باسمها في كتب المؤرخين، وهذا خلال رحلته التي زار فيها الإقليم بتاريخ 754هـ/1353م، ولم يذكرها قبله أحد من الرحالة والجغرافيين باسمها الذي هي عليه اليوم حسب رأي بعض من الباحثين(عبد الله حمادي الإدريسي،2011، ص266).

أبو سالم العياشي في كتابه ماء الموائد يشير إليها بقوله:"... ودخلنا أول عمالة توات وهي قرى تسابيت وزرنا بأول قرية منها قرية الولي الصالح سيدي محمد بن الصالح المعروف بعريان الرأس"(أبو سالم العياشي،2006، ص79)، وكان ذلك خلال عبوره بالمنطقة في رحلته إلى الحجاز سنة1669م.وللخدمات الكبيرة التي كان يجدها المسافر في أرض توات كانخفاض الأثمان، وحسن الضيافة، وتوفر العلف للرواحل والدواب، ووفرة الإبل التي كانت تعرض في أسواق المنطقة جعلته يمكث بالمنطقة أيام قبل المغادرة، ورحّالتنا العياشي مكث ستة أيام بالمنطقة، مما رسخ في ذاكرته تلك الأحداث التي صادفته حين وجوده بها.

ابن خلدون في" كتابه العبر" فيقول:"...وفواكه بلاد السودان تأتي من توات وتيكورارين..."(عبد الرحمن بن خلدون2000، ص730).

وكلام ابن خلدون هذا يؤكد مركز توات التجاري، فهي نقطة استقبال وتصدير للمنتجات باتجاه الشمال والجنوب،فاستقبلت فواكه ومنتجات الشمال إضافة إلى منتجاتها المحلية،وعملت على نقلها إلى بلاد السودان التي كانت في ذلك الوقت من أغنى بلدان الدنيا بمنتجاتها النفيسة والتي يأتي الذهب على رأسها،وبهذا كانت المنطقة عبارة عن ميناء صحراوي لتنشيط الحركة التجارية بين بلدان إفريقيا، وربما لولا تلك الأهمية لما كان للمنطقة أن تجد مكان لها في تاريخ ابن خلدون.

2. التعريف بتلمسان:

هي إحدى المدن الجزائرية العريقة كانت ملتقى للحضارات، وهي تقع في أقصى الغرب الجزائري، وتبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 700 كم، وعلى مقربة من الحدود المغربية، تقع بين خطي طول 1 و2 وبين خطي عرض °35 °33 شمالاً، وتمتاز التضاريس بثراء كبير وتنوع في سطح الأرض من جبال، وتلال وسهول وأودية، ومناخ جميل ومعتدل، حيث أنشئت على سفح جبل يقيها من ريح السموم الآتية من الجنوب.

ولقد أبدع المؤرخين في وصفها فأجادوا وأفادوا، ومنهم ابن خلدون فيقول:"أصبحت تلمسان من أعز وأعظم معاقل المغرب، وأحضر أمصاره...، ولم يزل عمرانها يتزايد، وخَطت تتسع،

والصروح بها تتعالى وتشاد إلى أن نزلها آل زيان، واتخذوها داراً لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور الموثقة، والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض، والبساتين، وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل الناس إليها من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم، والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها العلم، وضاهت أمصار الدول الإسلامية، والقواعد الخلافية)(عبد الرحمن بن خلدون، 2000، ص78).

تعد تلمسان مدينة عريقة الأصل والتاريخ والحضارة، تعاقب عليها عدة دول وإمبراطوريات من بينها الإمبراطورية الرومانية والوندالية والبيزنطية،وأطلق عليها الرومان اسم بوماريا(محمد بن رمضان،1995، ص57).

3. تعريف النازلة:

النوازل لغة: جمع نازلة، والنازلة: اسم فاعل من: نزل ينزل إذا حلَّ، ومجازا تطلق على المكروه والشدة من شدائد الدهر، ومن ذلك: القنُوت في النوازل، يعني: الشدائد التي تحل بالمسلمين.

النوازل اصطلاحا لها مفاهيم عديدة، فالأول يوافق المعنى اللغوي، والمعنى الثاني فهي الوقائع والمسائل المستجدة والحادثة التي لم يسبق فيها نص أو اجتهاد:(محمد حاجي، 1999، ص11).

وأما المعنى الثالث فهي تعني الحادثة التي تحتاج إلى حكم شرعي: (البركتي،1986، ص224).

فالنوازل: هي المسائل أو المستجدات الطارئة على المجتمع، بسبب توسع الأعمال، وتعقد المعاملات، والتي لا يوجد نص تشريعي مباشر أو اجتهاد فقهي ينطبق عليها(وهبة الزحيلي،2001، ص 09).

وأما فقه النوازل كما عرفه الشيخ فريد الأنصاري في تقريظه لكتاب فقه النوازل على المذهب المالكي: هو الكفيل بتلقين المجتهد وتمكينه من قواعد الفهم والاستنباط على مستوى الاجتهاد التطبيقي، وهو ما يسمى عند الأصوليين بـ"فقه تحقيق المناط"، أي تنزيل الأحكام على منازلها الواقعية، المرتبطة بالزمان والمكان وما يعتريهما من نسبية ومتغيرات(أبو عمران الفاسي، 2010، ص07).

النوازل لها أهمية كبيرة في نظر الإسلام والمسلمين، فعليها تتوقف مصالح الناس وبها يهتدون في شؤون دينهم ودنياهم من عبادات، ومعاملات، وسلوك، وأخلاق، وبها ينتظم أمورهم، وتصان حقوقهم، وترعى مصالحهم، فإلى المفتي يفزع الناس حالما تحل بهم الملمات، وتحز بهم الأمور، وتداهمهم المعضلات، وتكثر بينهم النزاعات، وتحدث لهم الخصومات، وتختلط الحقوق، ولعظم قدر الفتوى تولى الله أمرها بنفسه في محكم كتابه، وتولاها رسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده،والتابعون من بعدهم،ومن خلف من بعدهم من أهل العلم.

4. اليهود بمنطقة توات:

استوطن اليهود في مختلف المناطق الخاضعة للمسلمين نظرا للمعاملة الخاصة التي لقيها اليهود من المسلمين، فأمنهم المسلمين على أرواحهم وممتلكاتهم مقابل جزية يدفعونها للدولة الإسلامية، فامتزجوا بالعرب في بلاد الحجاز، حيث تخلقوا بأخلاقهم وتأثروا بعاداتهم ومن ثم اتبعوا سبيلهم في العادات والتقاليد الاجتماعية، وجاءت الدعوة الإسلامية واتسعت حركة الفتوح فامتزجت حضارات البلدان المفتوحة مع الحضارة العربية، وافرز هذا الخليط الحضارة العربية الإسلامية التي أثرت بدورها على السكان اليهود بالشمال الإفريقي بطبيعة الحال وتشير المصادر إلى قيام مجتمعات يهودية ببعض حواضر المغرب الإسلامي مثل:"القيروان –المهدية –أشير – تلمسان –فاس –وسجلماسة ..." عاشت بين أهل المغرب الإسلامي من العرب والبربر المسلمين وتأثروا بهم واثروا فيهم،خاصة انه لم يفرض على اليهود مكان للسكن وإنما وفرت لهم السلطات الإسلامية حرية السكن والتنقل، ورغم طبيعة اليهود القائمة على المكر والخداع لم يتعرضوا في بلاد المغرب إلى الاضطهاد إلا نادرا حتى اعتبر بعض المستشرقين ما حدث لهم من اضطهاد حدثا عابرا(عبد الرحمن بشير،2001، ص111). ودخل اليهود بلاد المغرب بعدما أجبرتهم اسبانيا والبرتغال على الرحيل من الأندلس فقصد نحو 100 ألف منهم بلاد المغرب الأقصى و50 ألف في بقية بلاد المغرب العربي(عبد الملك خلف التميمي،2011، ص69).

وفد على الإقليم التواتي هجرات يهودية مبكرة إلى كل من تاخفيفت وتمنطيط، ويذكر يعقوب وليل(Jacob oliel) في كتابه يهود توات أن المنطقة شهدت ثلاثة هجرات يهودية، أولها كانت في القرن 02م، وانطلقت من السرانيك ومرت بجبال نفوسة ومزاب إلى أن دخلت توات.أما الهجرة الثانية فقد انطلقت من الموصل في القرن 6م، والتقت مع جاليتين أخيرتين في الصحراء الليبية أولما أتت من الحجاز في القرن 7م، والثانية جاءت من خيبر واتجهوا نحو توات.

أما الهجرة الثالثة فكانت من الجهة الشمالية الغربية وانطلقت من الأندلس في القرن 10م، واستطاعوا أن ينشئوا مجتمعا يهوديا قائما بذاته واستغلوا مهاراتهم في تدبير المال(علي بومدين، 2010/2009، ص17).

عرف الإقليم هجرات اليهود قبل الفتح الإسلامي فاستقروا بعد نزولهم بمناطق مختلفة من الإقليم مثل:"تمنطيط، تيطاف، تاخفيف، تاسفاوت، تماسخت، ويعود تاريخ دخولهم إلى قصر تاخفيفت مثلا إلى أوائل القرن 11هجري وأواخر القرن/16م، وبالضبط 1003ه/1594، واستطاعت هذه الجالية أن تشكل علاقة وطيدة بينها وبين اليهود المستوطنين بقصر تماسخت وحسب تاريخ استقرارهم يرجح أنهم من نازحي الأندلس بعد سقوطها(A.G.P .(Martin ,1908.p37

غير أن شوكتهم علت بتمنطيط فزكت أموالهم بها وسيطروا على التجارة والأسواق فيذكر عبد الحميد بكري نقلا عن محمد بن الطيب: " ..انه كان بتمنطيط وحدها ما يفوق 363 سائغا يهوديا يبيعون ويشترون في الذهب والفضة"(عبد الحميد بكري، 2010، ص14).

5. **التعريف بالشيخ محمد المغيلي:**

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عمر بن مخلوف ينتهي نسبه إلى الحسن المثنى السبط بن علي بن أبي طالب زوج السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولد بمغيلة، فلقب بالمغيلي نسبة لها للمكان وليس للقبيلة، ولد عام 820هـ/1417م، وهو رأي القاضي المكناسي فعندما ذكر وفاة أحمد بن محمد المغراوي المصمودي في تلك السنة، ويرجح الأستاذ عبد الحميد بكري في كتابه النبذة ما ذكره العلامة ابن القاضي في تاريخ الوفايات وهو(820هـ/ 1417م) واتفق على وفاته سنة (909هـ/1503م).

نشأ في أحضان عائلته المشهورة بالعلم والتقوى، حيث ظهر بها العديد من العلماء من أمثال الشيخ موسى بن يحي بن عيسى الشهير بالجلاب، فحفظ عليه القرآن الكريم، وأخذ عنه مبادئ الفقه وأمهات الكتب الفقهية للمذهب المالكي كالرسالة، ومختصر خليل، وابن الحاجب وابن يونس، عكف على دراسة العلوم العربية والإسلامية اللغوية، والدينية، والعقلية، والنقلية، في إحدى المراكز الثقافية ببلادنا فغادر إلى بجاية إذ كانت مركزا إشعاعيا يفد إليها الطلاب والعلماء، فأخذ الحديث (موطأ الإمام مالك) عن الإمام سعيد المقري، وعلوم العربية من الإمام (يحي بن يدير)، ومنها انتقل إلى الجزائر بني مزغنة إلى التعلم على يد عبد الرحمان الثعالبي، فنزل عنده للتعلم، ومكث معه مدة من الزمن يتعلم منه الحديث،والتفسير،والقرءان،وعلم التصوف،ومنه أخذ الطريقة الصوفية القادرية،ومن وصاياه:"أن لا يعاشر أهل سفاهة، وأن لا يستوطن مكان إهانة"(مقدم مبروك ،2002م، ص42).

وبعد نبوغه اشتغل في التدريس بتلمسان، وهناك لاحظ التعفن السياسي الذي يسود عرش بني زيان، والتفسخ والانحلال اللذان يعمان أغلب المجتمع الزياني، وتكالب القوى الأوروبية ضد البلاد ومدنها الساحلية،كما لاحظ خروج الأمراء عن الجادة الإسلامية، وانغماسهم في الملذات، واستسلامهم لأهواء الأجانب من اليهود والأسبان، فأنف العيش هناك وتاقت نفسه للهجرة أين يكون في مقدوره القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وصفه العلماء بالعديد من الأوصاف التي شهدت بمكانته وفضله العلمي، وصفه أحمد بابا في الابتهاج بأنه خاتمة المحققين الإمام العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم متمكن المحبة في السنة وبغض أعداء الدين.

ونعته الشيخ السنوسي قائلا: "الأخ الحبيب القائم بما أندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،التي قام بها سيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورةالعلمية،والغيرة الإسلامية وعمارة القلب بالإيمان(أحمد بابا التمبكتي، 2004، ص264).

6. نازلة يهود توات وموقف علماء تلمسان منها:

بعد استقرار اليهود بمنطقة توات وطول مكثهم فيها سيطروا على مكان القرار في البلاد،فأصبحت الأسواق تحت أيديهم،والتجارة خاضعة لتدبيرهم، فاتسع نفوذهم وأصبحت البلاد تحت سيطرتهم، وفوق هذا كله ظلموا أهل البلاد الأصليين واستعبدوهم،كما كانت لهم علاقة مع البعض من سكان البلاد حتى كان الواحد منهم يقربهم من نفسه، وعياله، أو يستعملهم في أعماله بيدهم ما شاء من ماله مع أنه لا دين لهم ولا مروءة، واستغلوا سيطرتهم على المنطقة ودواليب الحكم في البلاد، فوظفوا ذلك لإقامة شرائعهم الدينية، وبناء أماكن لإقامة ذلك فبنوا الكنائس والبيع، واستعلوا بذلك على الإسلام والمسلمين، وهذا ما استنكره بعض العلماء في المنطقة، ومن أبرز أولئك العلماء محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كرس دعوته بالمنطقة وقضيته في الصحراء إلى تخليص البلاد والعباد من هذا الفيروس الذي نخر في كاهلهم حتى كاد يقضي عليهم، ويستعبدهم في بلادهم،فجرد نفسه لذلك وجمع الأدلة لإدانتهم ومن تلك الأدلة:

أ.الآيات التي تدل على تجنب رفقاء السوء: افتتح بها المغيلي أدلته وحذر من الجلوس مع رفقاء السوء،ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ الخَبِيْثَتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالخَبِيْثُونَ لِلْخَبِيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ والطَّيِبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾(سورة المائدة، الآية 51).

ب. الآيات التي تنفي صفة الإيمان على من يوالي الكفار: دلل المغيلي بهذه الآيات حتى يظهر خطر الأمر،وفي أن الموالاة للكفار مسألة خطيرة، وليس كما يدعي البعض بأنه تسامح وتعايش، ومنها قوله تعالى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُومِنُونَ بِالله وَاليَوْمَ الآخِرِ يُوَآدُونَ مَنْ حَادَ الله وَرَسُولِهِ وَلَوْ كَانُوا ءابَآءهِمْ أَو أَبْنَاءِهِمْ أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ عَشِيْرَتِهِمْ﴾(سورة المجادلة، الآية22)

جـ. أهل الكتاب يحبون أن نكفر بالله ونواليهم ونتبعهم: ومن ذلك استشهد بقول الله تعالى:﴿مَا يَوَدُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلاَ المُشْرِكِيْنَ أَنْ يُنَزَلَ عَلَيكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَالله يَخْتَصُ بِرَحْمَتِه مَنْ يَشَاءُ والله ذُوْ الفَضْلِ العَظِيْمِ﴾(سورة البقرة، الآية105).

د. الدعوة إلى معاداة الكفار وعدم موالاتهم:ومن ذلك قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءَامنُوا لاَ تَتَّخِذوا اليَهُودَ والنّصارَى أَوْلِياء بَعْضُهُم أولِيَاءُ بَعْض ﴾(سورة المائدة، الآية51).

ه. رفع راية الإسلام وإظهاره على جميع الأديان: ومن ذلك قول الله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِيْنِ الحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِهِ.﴾(سورة الفتح، الآية 28).

و. قتال أهل الكتاب المتمردين على أحكام الشرع: ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَيُومِنُونَ بالله وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يحُرَمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِيْنَ الحَقِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوْا الجِزْيَةَ عَن يَّدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(سورة التوبة، ص29).

د. الدعوة إلى تغيير المنكر وعدم السكوت عليه: ومن ذلك قول الله تعالى:﴿ وَلتَكُن مِنكُمْ أمَّة يَدْعُونَ إلَى الخَيْرِ وَيَامُرونَ بِالمَعروُفِ وَيَنهَونَ عَن المُنكَرِ وَأولَئِك هُمُ المُفْلِحُون﴾(سورة آل عمران، الآية104).

هذا بالنسبة للآيات القرآنية التي استدل بها المغيلي في رسالته القيمة، والملاحظ لها يجدها تدخل تحت الموضوع وتشير إليه وتفصل خباياه، وتعطي الصورة الواضحة والواصفة لأعداء الله وكيف يتلونون ويتغيرون.

كما استدل بعدد من الأحاديث التي تدعو إلى محبة الرسول(ص)، وتتكلم عن أهل الكتاب وبيعهم وصوامعهم، واستدل ببعض القصص التي تشير لمكر اليهود وخديعتهم، وكل ذلك لتدعم رأيه الداعي إلى طرد اليهود من منطقة توات وهدم بيعهم وصوامعهم، وخصصوا أنه لقي معارضة شديدة من بعض علماء المنطقة خاصة قاضي المنطقة عبد الله العصنوني،وهذا بدعوة التعايش والتسامح الديني مع أهل الكتاب.

لتدعيم موقفه اتصل الإمام المغيلي بعدد من العلماء من داخل الجزائر وخارجها مثل: فاس، وتونس، وتلمسان، وكانت أبرز منطقة قصدها هي تلمسان كونه ينتمي إليها، وعلمائها قد ذاع صيتهم،وفوق كل هذا الصلة الثقافية بين تلمسان ومنطقة توات، ومن أبرز أولئك العلماء نجد: الشيخ السنوسي، ومحمد بن عبد الجليل التنسي، من تلمسان، والرصاع مفتي تونس، وأبو المهدي الماواسي مفتي فاس، وابن زكرى مفتي تلمسان والقاضي أبو زكريا يحي بن أبي البركات الغماري، وعبد الرحمن بن سبع، ومما رد به السنوسي مثلاً قوله:

من عبيد الله محمد بن يوسف السنوسي إلى الأخ الحبيب القاسم من علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الإسلامية وعمارة القلب بالإيمان السيد أبي عبد الله بن عبد الكريم المغيلي حفظ الله حياته وبارك في دينه ودنياه وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد بلغني أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود أذلهم الله كنيسة في بلاد الإسلام وحرصكم على هدمها، وتوقف أهل تمنطيط فيه من جهة من عارضكم فيه من أهل الأهواء فبعثتم إلينا مستنهضين همم العلماء فيه فلم أرى من وفق لإجابة المقصد وبذل وسعة في تحقيق الحق وشفاء الغلة ولم يلتفت لقوة إيمانه ونصوع إيقانه لما يشير إليه الوهم الشيطاني من مداهنة من تتقي شوكته سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي أمتع الله به إلى آخر كلامه المتقدم بعضه(أحمد بابا التمبكتي، 2004، ص577).

ولقد وافق المغيلي عدد من العلماء إلى جانب السنوسي ومنهم الرصاع مفتي تونس وأبو مهدي الماواسي مفتي فاس وابن زكري مفتي تلمسان، والقاضي أبو زكرياء يحي ابن أبي البركات الغماري وعبد الرحمن بن سبع التلمسانيان.

وبعد وصول جواب التنسي ومعه كلام السنوسي لتوات أمر الإمام المغيلي جماعته فلبسوا ألآت الحرب وقصدوا كنائسهم وأمرهم بقتل من عارضهم دونها فهدموها، وألزم اليهود بالذل والهوان ولقد قال المغيلي لمناصريه من قتل يهوديا فله على سبع مثاقيل وجرت يومئذ في ذلك أمور، وطهر توات وتمنطيط نهائيا من اليهود، ولما ظهرت بعض جيوبه المقاومة في أوساطهم طاردهم ولاحقهم حتى تومبكتو حيث حرض عليهم حاكمها وقد كلفته هذه العملية حياة ابنه عبد الجبار المغيلي الذي قتله اليهود أثناء غيابه في مهمته الدعوية ببلاد السودان الغربي،وعندما بلغه خبر مقتل ابنه اشتد غضبه، ولم يتحكم في نفسه فطلب من سلطان التكرور إلقاء القبض على جماعة التاواتين بكاغو فقبض عليهم السلطان وأنكر عليه الفقيه أبو المحاسن محمود بن عمر إساءته إلى هؤلاء الأبرياء إذ لم يفعلوا شيئا فرجع عن ذلك وأمر بإطلاقهم(نور الدين حاج أحمد، 2010، ص50.)

7. دور الإمام المغيلي الجهادي في توات:

لعل من أبرز علماء تلمسان الذين كان لهم دور بارز في مختلف المجالات هو الإمام المغيلي، وهذا يعود لعدة أسباب منها:

-استقراره بالمنطقة،واختلاطه مع أهلها.

-هدفه الذي جاء لأجله، والمتمثل في محاربة اليهود الذين عاثوا في بلاد فساداً، واحتقروا المسلمين واستولوا على أملاكهم.

-هدفه الدعوي الذي جعله يجوب الصحراء حتى بلغ بلاد السودان الغربي.

كما كان للإمام دور جهادي في توات كان له دور ديني إصلاحي، والمتمثل في نشره للطريقة القادرية عملا بوصية شيخه سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وساعده للقيام بهذا الدور الزوايا كانت تشتهر بها المنطقة.

8. الأسباب التي دعت الإمام المغيلي لمحاربة اليهود بالمنطقة:

- تجاوز اليهود للحدود الشرعية واستعلائهم على المسلمين، وتمردهم على الأحكام، والتحكم في أصحاب الشوكة والسلطان، وذلك بأنهم سيطروا على الوضع ووضعوا الحكام إلى جانبهم واشتروا ذممهم حتى أصبحوا يأتمرون بأوامرهم وينتهون بنهيهم، فأدى بهم ذلك إلى تجاوز الحدود الشرعية.

- تساهل المسلمين مع هؤلاء اليهود حتى أصبح المسلم يقرب اليهودي من نفسه،وعياله ويستعمله في أعماله، ويجعل بيده ما شاء من ماله مع أنه لا دين له وعهد، ووصل الأمر ببعض المسلمين بإعانة اليهود في بناء بيعهم، وكان هذا من باب التعاون على الإثم والعدوان،ومعصية كبيرة، وإهانة لمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان لا يجوز لمسلم أن يعين على بناء كنيسة بأرضه، فأحرى به أن لا يساعده على بنائها بيده لأن ذلك من الإعانة على الضلال ومباشرته.

- ثراء الجالية اليهودية بالمنطقة، حيث استغلوا هذه الثروة للسيطرة والنفوذ الاقتصادي مما سهل العيش عليهم،ومكنهم من بناء بيع كبيرة لهم، وتمكنهم من تشكيل تجارة كبيرة عادة عليهم بالأرباح، وخلقت لهم سلطة خاصة وأنهم استغلوا في تجارة الحلي والمجوهرات، فأصبحوا من الأثرياء يشار إليهم بالبنان.

- إحداث اليهود كنائس في ديار الإسلام وتطاولهم على المسلمين، وأصبحت لهم حرية دينية جعلتهم يقيمون شعائرهم، وطقوسهم بأمان داخل البلاد،ويتصلون بأبناء ملتهم(أبو بكر اسماعيل ميقا، دس، ص107).

9. زاوية الإمام المغيلي ببوعلي ودورها:

بعد رجوع الإمام المغيلي من فاس وفشله في إقناع علمائها والسلطان الوطاسي، ولكونه لم يتمكن من السيطرة على تمنطيط لوجود من يعاديه بها، ولاستقرار أنصار المغيلي من قبيلة أولاد يعقوب أكبر القبائل التواتية في الشطر الشرقي من الإقليم، وكذلك البرامكة وغيرهم من القبائل الأخرى المحاذية لقصر بوعلي.

من هنا أسس الأمام المغيلي إمارته، وزاويته بقصر بوعلي على أثر الخلاف الذي وقع بينه وبين شيخ زاوية أبي يحي المنياري عبدالله العصنوني وهذا سنة (885هـ 1480م) وبدأ نشاطه التعليمي بها، وسرعان ما جمعت هذه الزاوية بين المهمة التعليمية و الحربية، حيث كانت قاعدة لانطلاق جيشه لضرب اليهود بتازولت وتاخفيفت، وتاسفاوت، وتمنطيط، وأغرملال، وغيرها من أماكن تواجد اليهود بتوات، ولهذا كان للزاوية دوراً كبيرا يتمثل فيما يلي:

- كانت مركزاً للعبادة والتعليم والتربية، حيث قصدها الكثير من الطلاب والمريدين، واستطاعت في ظرف وجيز من أن تنافس الزوايا بتوات آنذاك خاصة تمنطيط.

- كانت مقراً للقضاء بالمنطقة بعد مركز تمنطيط،وقد كانت تختص في الفصل في القضايا والخصومات، والنوازل التي كانت تشغل بال الأفراد والعشائر المنتمية إلى الجهة الشرقية من المجتمع التواتي.

- اهتمام الزاوية بالجانب الاجتماعي على عادة جميع زوايا المنطقة، حيث كانت مركزا لنزول المسافرين، وإيواء الفقراء، وابن السبيل.

- توفير الأمن والاستقرار للقوافل التجارية المارة بها خاصة تلك الآتية من أسواق الجنوب(السودان الغربي)، حيث كانوا ينزلون في مختلف مناطق الإقليم لأخذ نصيب من الراحة، والتزود بالماء والغذاء، واستبدال ما ضعف من رواحلهم.

- كانت مركزا عسكرياً لتجيّش الجيوش واستنهاض الهمم حيث كانت مركزاً للحرب الأولى والثانية على اليهود ، ينطلق منها المحاربين ثم يعودون إليها.

10. رأي الشيخ محمد باي بلعالم في قضية اليهود، وموقف الأمام المغيلي:

يصف الشيخ باي الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بأنه عالم من أعلام الإسلام الذين كان لهم موقف واضح من اليهود بمنطقة توات، حيث جرت بينه وبين الشيخ عبد الله العصنوني في هدم الكنائس، وبالضبط في تمنطيط محاورات ومناظرات دعم فيها كل واحد موقفه برأي العلماء من الشمال، وهذا ما يؤكد الصلة الثقافية بين الشمال والجنوب ـ مثل علماء تلمسان، وتونس، وفاس، وأما الشيخ العصنوني فيقول بأنهم أهل ذمة علينا أن نراعي حقوقهم،وألا نهدم كنائسهم، وألا نقاتلهم،فبعث كل منهم إلى بعض العلماء، فكان منهم من أيد موقف الشيخ المغيلي، ومنهم من أيد موقف الشيخ العصنوني، وبمجرد ما بلغت فتوى العلماء الذين أيدوه بادر الإمام المغيلي إلى هدم كنائس اليهود وإلى تطهيرهم من هذه الأرض الطاهرة، فطردهم وأبقاها طاهرة، يعقب الشيخ باي على هذه الحادثة ويقول:

لو طوينا كتب التاريخ وطرحنا الماضي جانبًا ورجعنا إلى الحاضر، فإننا نلاحظ التشابه المطلق في المعطيات والقواعد التي يسير عليها النظام العالمي، ويتجلى ذلك في استمرار سيطرة الطائفة اليهودية على مراكز القرار بواسطة مسكها لعصب الحياة، من أموال تحرك التجارة وتؤثر على القرارات السياسية حتى للدول التي تدعي الصدارة، واليهود منذ القديم يحسنون اقتناص الفرص، ولا يدخلون مكانًا إلا إذا خططوا ودققوا في المعطيات من أجل تحقيق النتائج، ما أصدق التشابه في القول والمصير للإمامين الشيخ الإمام ابن باديس رائد النهضة الإصلاحية للأمة الجزائرية في العصر الحديث والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في العصور الوسطى، فرغم الفارق الزماني والمكاني بينهما إلا أن نشاطهما كان يصب في مجرى واحد .فكان ابن باديس يسعى من وراء تأسيس جمعية العلماء المسلمين إلى إصلاح الفساد والوقوف أمام محاولات طمس الشخصية الإسلامية للشعب الجزائري بالحكمة في ضرورة المحبة والوئام،فإن الإمام المغيلي سلك نفس السبيل فكان من وراء المذهب الإصلاحي يهدف إلى سد الشرخ الذي أحدثته الأوضاع السياسية والاجتماعية للمجتمع التواتي، وكذلك عبر إصلاح أمور الناس والعدل بينهم

الخاتمة:

نصل في ختام هذه الدراسة التي خصصناها للحديث عن العلاقات الثقافية بين منطقة توات وتلمسان من خلال نازلة تعد من أشهر الحوادث الاجتماعية في المنطقة إذا بلغ صداها إلى خارج

بلاد المغرب الأوسط، حتى قدم فيها علماء بلاد المغرب الأدنى، والأقصى رأيهما، وما هذا إلا لأهميتها وشدة خطورتها، وتعلقت تلك الحادثة باليهود الذين استقروا في المنطقة واستعبدوا أهلها واستلوا على أرزاقهم، وتحكموا في القرار واستمالوا أهله وأصحابه، ومن أبرز العلماء الذين كان لهم الدور فيها هو العالم الإمام عبد الكريم المغيلي الذي نزح للمنطقة من حاضرة تلمسان التي كانت من أبرز حواضر بلاد المغرب الأوسط إلى جانب تيهرت وبجاية...، حيث كان له الفضل في تطهير المنطقة من هذا الدنس الذي عبث بالبلاد والعباد، ولولا ذلك لكانت المنطقة كما هو عليه حال إخواننا في فلسطين، نرجو من الله أن يفرج عنهم كربهم، فجمع لتدعيم رأيه الكثير من حجج علماء بلاد المغرب وتونس،خاصة علماء تلمسان وعلى رأسهم الإمام السنوسي، فكانت هذه الحادث نموذجا عن تلك الصلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بين المنطقتين.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

1. القرآن الكريم : رواية ورش.
2. احمد أمين و مصطفى عفت وآخرون(2001)، الموسوعة العربية الميسرة،ط2، دار الجيل بيروت، القاهرة، تونس ج2.
3. ابن بطوطة محمد بن عبد الله(2001)، تحفة النظار في غرائب الأمصار، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان.
4. ابن خلدون عبد الرحمن(2000)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم، تح سهيل ذكار و خليل شحاذة، دار الفك، بيروت، لبنان.
5. ابن منظور(1990)، لسان العرب، ط1، ج4، دار صادر، بيروت، لبنان.
6. الإدريسي عبد الله حمادي(2011)، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وتصديه للخطر اليهودي بصحراء توات والصقع السوداني، ط1، ابتكار للنشر والتوزيع، الجزائر.
7. بشير عبد الرحمن(2001)،ا ليهود في المغرب العربي642-1071م، ط1، عين للدراسات والبحوث الإسلامية، مصر.
8. بن رمضان محمد(1995)، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بن زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
9. التمبكتي بابا أحمد(2004)، نيل الابتهاج بتطريز الدباج، تح علي عمر، القاهرة، مصر،ج2..
10. التميمي عبد الملك خلف(2011)، أضواء على المغرب العربي،دار البصائر،الجزائر.
11. حاج أحمد نورالدين(2011/2010)، المنهج الدعوي للإمام المغيلي، مذكرة ماجستير، تخصص دعوة وإعلام، قسم أصول الدين، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، جامعة باتنة، الجزائر.
12. حجي محمد(1999)، نظرات في النوازل الفقهية، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،المغرب.
13. الزحيلي وهبة(2001)، سبل الاستفادة من النوازل والفتاوى والعمل الفقهي في التطبيقات المعاصرة، دار المكتبي، دمشق.
14. العياشي سالم (2006)، الرحلة العياشية، ط1،تح سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي، أبو ظبي، الإمارات.
15. الفاسي عمران(2010)، فقه النوازل على المذهب المالكي: فتاوى أبي عمران الفاسي، جمع وتحقيق محمد البركة. المغرب.

16.فرشوخ محمد أمين(1989)، موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر، بيروت، لبنان.
17.مقدم مبروك(2002)،الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والوثائق التاريخية، مؤسسة الجزائر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
18.الونشريسي أحمد بن يحي(2011)، المعيار المعرب والجامع المُغرِب عن فتاوى أهل أفريقية والمغرب؛ تح محمد عثمان.عالم المعرفة للنشر والتوزيع،الجزائر.
19. وهيبة عبدلي(2007-2006)، الشعر الشعبي بمنطقة تلمسان، مذكرة ماجستير،الأدب الشعبي، قسم الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، الجزائر.
20.يحي بو عزيز(دس)، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية -16-20م، دار هومة، الجزائر.
21. A.G.P .Martin(1908) , Les Oasis Sahariennes (Gourara - Touat - Tidikelt) Edition de l'imprimerie .Algérienn